دراسات لما قبل التاريخ في سوريا

ان دراسات ما قبل التاريخ في الشرق الأدنى قد سارت في السنين الاخيرة بخطى سريعة في سبيل التقدم ؛ غير ان بعض المناطق أصابت منها نصيباً أوفر . فقد أجريت حفريات دقيقة في عدد وافر من تلال فلسطين كتل فرعا وتل المتسلم وتل تحنك وتل سندحنه ، وكتليلات غسول في شرقي الأردن ، ومن كهوفها ككهوف وادي خريطون ، جنوبي بيت لحم ومغارة جبل قفزة بالقرب من الناصرة ، ومغارة شقبة في السفيلة . وفي وادي المغارة في جبل الكرمل ، وفي مغارة الأميرة ومغارة الزطية غربي بحيرة طبرية الخ ... والفضل في ذلك يرجع الى ما بذلته بعض الجمعيات العلمية وبعض الافراد من جهود مستمرة . وقد مكنتنا تلك الأبحاث من معرفة سكان أرض كنعان في الطور الطبقي الرابع والمناخ الذي عاشوا فيه والحيوانات التي حامت حولهم ولقد صار بوسع بعض الاختصاصيين كالسيد رنسه نيفل (R. Neuville)[1] والآنسة (D. A. E. Garrod)[2] والسيد ليون پيكارد (L. Piard)[3] ان يشرعوا في وضع تنسيق للصناعات الحجرية التي تعاقبت في فلسطين منذ أقدم العهود الى العصر البرنزي أي الى الألف الثالث قبل المسيح .

ولقد صادف لبنان بعض الحظ عندما شرعت بعثة أميركية من جامعة بوسطن

---

(١) R. Neuville , le Prébistorique de Palestine , Revue Biblique , 1934 , pp. 237 - 259 .

(٢) D. A. E. Garrod et D. M. A. Bate , The Stone Age of Mount Carmel , Oxford , 1939 .

(٣) L. Picard , Structure and Evolution of Palestine Quarternary , Jérusalem , 1943.

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

في الحفر في مأوى مظلل بالصخر بالقرب من انطيلياس إذ عثرت على هيكلين بشريين دعي الواحد منهما اگبرت (Egbert) وهو الاسم المعروف به الآن عند العلماء وهو يرتقي الى العصر الأوريناسي (Aurignac) اي الى الألف الثلاثين قبل المسيح ولهذين الهيكلين أهمية كبرى لأنهما أول ما وجد من نوعهما من العصر الأوريناسي في الشرق الأدنى [1] وقد أتاحت لهم هذه الحفريات أن يتبعوا الصناعات الظرانية وتطورها من عصر لڤلوا (Levallois) الى عصر اوريناك أي من الألف السبعين الى الألف الثلاثين قبل المسيح . أما سوريا فلم تحظَ بذلك التوفيق مع ان الأدوات الظرانية وجدت فيها قبل سنة ١٨٨٠ ومنذ ذلك العهد ما برحت اسماء الأماكن التي سكنها الانسان الأول تتزايد حتى نشر بعضهم في صدر هذا القرن دراسات عمومية في ما قبل التاريخ بسوريا [2] والسبب في هذا التأخير هو انه لم تُجرَ حفريات منظمة في الكهوف وفي طمي الأنهار والى هذه الحفريات وحدها يستند العلماء في دروسهم حالة الإنسان الأول وتحقيق التطورات التي مرّ بها والعصور التي تعاقبت عليه .

لا شك أن دراسات جاك دي مرغان (J. De Morgan) في الشرق الأوسط [3] لها أهمية كبرى ، ولقد فتحت حقبة جديدة فيما قبل التاريخ الشرقي ؛ غير ان معلوماته عن سوريا غير كافية ، لأنه استند على الاكتشافات الظرانية التي وجدت على سطح الأرض وهي لا تجدي نفعاً ما لم يسبقها حفريات في طبقات الأرض يتاح منها للعالم ان يقارن بين الأدوات التي وجدها في الحقول والتي

(١) لم تنشر البعثة الى الآن الا بعض مقالات عامة عن أعمالها . منها مقال في المشرق عنوانه : لمحة في حياة الانسان الأول في العصر الظرّاني القديم – حفريات كار عقيل فوق انطلياس ، بقلم الأب ج . فرنكين يوونغ اليسوعي من جامعة فوردام ، المشرق ، ١٩٤٧ ، ص ٢١٨ – ٢٤٨ .

(٢) راجع مقالنا في مجلة العاديات السورية ، السنة الخامسة ، ١٩٣٧ ص ٤٩ .

(٣) La. Préhistoire Orientale , 3 vol . , Paris , 1926 - 1927

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

لا تحمل تعريفاً ، وتلك التي اخرجها من الكهوف والتلال مزوّدة بتاريخ أصلها وصنعها .

كثر في عهد الانتداب الذين شغفوا بجمع ادوات الانسان الأول وقد الف بعضهم مجموعات لا يستهان بها وصفوها في مقالات شتى وعرضوها في متاحف اوربا غير انهم في وصفهم كانوا معتمدين معلوماتهم عما قبل التاريخ باوربا وهي تختلف كثيراً عنها في بلاد الشرق [1] انما لا ننكر فضل السيد الفرد روست (A . Rüst) الألماني الذي اشتغل طيلة ثلاثة اعوام من سنة ١٩٣٠ إلى ١٩٣٣ في البحث عن الأماكن التي سكنها الانسان الأول في ما يجاور النبك ويبرود فتوصل الى اكتشاف عدد منها ثم راح يجري حفريات في ثلاثة مآوٍ تحت الصخر قرب يبرود فكشفت له جهوده عن وجه جديد من وجوه الصناعة الظرانية دعاه باسم « اليبرودي » وقد نشر بعض المعلومات عن اكتشافه هذا في مجلة ما قبل التاريخ الألمانية [2] واننا لا نزال ننتظر الدراسة المفصلة التي سوف يصدرها عن حفرياته فلربما تميط اللثام عن نقاط غامضة في حياة الانسان الأول في سوريا . إذ هي الحفريات العلمية الأولى التي أجريت في بلادنا والتي تدور حول ما قبل التاريخ .

ومنذ سنة ١٩٤٠ ظهرت عدة دراسات في عهد ما قبل التاريخ في سوريا نخصُّ منها بالذكر مقالاً للمقدم الافرنسي غريدل (Gridel) عنوانه « ما قبل التاريخ في جبل الدروز وفي سوريا »[3] ومقالاً آخر للأب اليسوعي بوليو (Beaulieu) عن مدينة جبل الدروز الأولى [4] وهو درس سطحي أقل قيمة

(١) راجع مقالنا السابق ص ٥٠ - ٥١ .

(٢) Prachistorische Zeitschrift , t. xxiv , 1933 , pp. 205-218

(٣) Bulletin de la Société Prèhitorique Française , 1944 , pp. 80 - 82 .

(٤) La Première Civilisation bu Djebel Druze, Syria, 1944-1945 , t. xxiv pp. 232 - 250 .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

من درس آخر للدكتور پرڤس (Pervès) ظهر في المجلة نفسها تحت عنوان : ما قبل التاريخ في سوريا ولبنان [١] وقد أصلح فيه ما قاله هو نفسه في مجلة جمعية ما قبل التاريخ الافرنسية [٢] وقد جارى في موضوعه ما كتبه السيد جان هلر (Jean Haller) سنة ١٩٤٥ [٣] تحت عنوان : لمحة عن ما قبل التاريخ في سوريا ولبنان .

تلك نظرة خاطفة في دراسات ما قبل التاريخ في بلادنا : وهي دراسات متقطعة لا تفي الموضوع حقه . اذ يتناول القسم الأكبر منها البحث عن اماكن متباعدة متشتتة وُجدت فيها آثار الانسان الأول . ثمَّ ان الاكتشافات السطحية تربو عدداً على الحفريات والاكتشافات الطبية .

فمن الضروري ان توحد الجهود فتقسم البلاد إلى نواح تدرس الواحدة بعد الأخرى وعندما توضع لوائح للأماكن ، من حقول ومآو سكنها الانسان الأول وترك فيها ادوات عمله وصناعته ، يُختار كهف أو طمي نهر من كل هذه النواحي وتُجرى فيه حفريات علمية تحت اشراف اناس اخصائيين . ثم تُجمع المعلومات العلمية التي توصل اليها هؤلاء الاخصائيون والمأخوذة عن نقاط متفرقة من البلاد فيؤلف منها هيكل لدراسات ما قبل التاريخ في سوريا ؛ أخيراً تطبق الاكتشافات السطحية على نور هذه المعلومات وهكذا نكون قد وقفنا على ناحية مهمة من تاريخ بلادنا لا بل من تاريخ البشرية لأن سوريا ملتقى الطرق ومحط الشعوب منذ فجر العالم . ومن ثمَّ فلدرس ما قبل التاريخ اهمية أكبر منها في أي قسم من المعمور .

---

(١) La Préhistoire de la Syrie et du Liban Syria, 1946-1948, t. xxv, pp. 109 - 129.

(٢) Bulletin de la Société Préhistorique Française,

(٣) Notes et Mémoires de la Délégation Générale de France au Levant, Section Géologique, t. IV, pp. 49-58.

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

من سنين خلت وكنا كرسنا اوقات فراغنا للتجوال في نواحي القلمون فأسعدنا الحظ بان نقف على اكثر من خمسين مكاناً سكنه انسان العصر الرابع وجمعنا من أدوات شغله مجموعة لا يستهان بها ؛ ثمَّ عثرنا على آثار تركها هذا الانسان من نوع (Dolmen) او (Monuments mégalithiques) وهي الأولى من نوعها التي تكشف في سوريا وقد خصصنا لهذه الاكتشافات عدة مقالات وقد قام الأب (Beaulieu) بالعمل نفسه في جبل الدروز فلماذا لا تتابع هذه الجهود في نواح أُخرى من البلاد ؟ اخيراً وقفنا بالقرب من درعا على محطة لانسان العصر البرنزي التقطنا فيها عدة آلاف من الأدوات الظرانية من فؤوس ومناشير وسكاكين ومخارز ومحارف ومناجل وغير ذلك من الأدوات المنزلية او الصناعية والزراعية التي كان يستعملها في ذلك الوقت [1] .

لا يخلو هذا الاكتشاف من الأهمية العلمية إذ ينبئنا عن أبعد نقطة سكنها الشعب المدعو الغسولي (Ghassoulien) والذي ترك لنا مدنية زاهرة في شرقي الأردن وقد تتبع العلماء آثاره في فلسطين ومصر ولا نعرف الى الآن اصل هذا الشعب ومنشأه . ولذا فكل نقطة نجد فيها من بقاياه تعبر معلماً يهدينا الى الطريق الذي تبعه .

يستدل من الأدوات التي وجدناها أن هذا الشعب كان منصرفاً الى الزراعة والصناعة ، يجيد زراعة الحبوب . فكثرة المناجل والطواحين اليدوية التي وجدناها دليل واضح على ذلك وهكذا يتسنى لنا بالاستناد الى ادوات ظرانية يستخف بها المارّة ان نتأكد أن حوران كانت منذ الألف الرابع قبل المسيح كما كانت على أيام رومة كما هي الآن أهراء سورية .

---

(١) P . J . Nasrallah , Une Station ghassoulienne dans le Hauran , Revue Biblique , 1948, t. LV pp. 81 - 103 .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وفي عدد الأدوات التي عثرنا عليها أداة غريبة الشكل ، وهي الأولى في نوعها حتى في اوربا ، وقد اقترحنا انها مشط للصوف لعلمنا من بقايا الحيوانات التي وجدت في تليلات غسول ، في شرقي الأردن ، ان الشعب الغسولي كان يهتم بتربية المواشي .

هذه هي الاستنتاجات التي يخولنا أن نستدركها درس أدوات الانسان الأول ، وهي مبنية على أساس علمي راسخ وليس مجرّد خيال . وعندما نكون قد عرفنا وعيّنا الأماكن التي سكنها الانسان القديم في سوريا يمكننا ان نخط الصفحة الأولى من تاريخ بلادنا ولا غرو انها سوف تكون صفحة مجيدة لأن الشرق كان منذ فجر الانسانية مبعث الحضارة .

الأب يوسف نصر الله

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net